

تعالوا إلى كلمة سواء

دعونا نسلّم بأن المشكلة باتت في هذه المرحلة تتلخص في بضعة عناوين
اهمها : الاحتلال الاسرائيلي ، الوجودان العسكريان السوري والفلسطيني ،
الوجود المسلّح اللبناني غير الشرعي ، خلافات اللبنانيين حول مستقبل وطنهم .
قد يكون هذا التسلسل في سرد أوجه المشكلة ، او لا يكون ، معبراً تعبيراً
صادقاً عن مقادير الضغط الذي يحدثه كل وجه من تلك الواجه على حياتنا اليومية ،
فالامر يختلف باختلاف المناطق ، ولكنه قطعاً لا يرسم الطريق الاقصر ، وبالتالي
الاسلم ، للخروج من المحنة التي يتخبط فيها لبنان ، لا بل قد تكون اقرب الى
الواقعية اذا قلنا ان طريق الخلاص لا بد ان يسلك خطأ بدايته من آخر ذلك
التسلسل ، أي في تجاوز الخلاف بين اللبنانيين وانهاء كل وجود لبناني مسلّح غير
شرعي ، علماً ان فتنة الجبل الخطيرة مرتبطة مباشرة بهاتين الظاهرتين .

حجتنا في ذلك ان من البديهي ، ونحن نواجه مصيرنا تحت وطأة الاحتلال
الاسرائيلي ، ان نجمد خلافاتنا الى ان يحين وقت حسمها بالحوار الديمقراطي
الهاديء البناء ، وان نحل كل التنظيمات المسلّحة ونكف عن شهر السلاح في وجه
بعضنا البعض ، ونعطي الدولة الفرصة الكاملة في سعيها الى اعادة بسط سلطة
الشرعية على كل بقعة من ارض لبنان باحكام سلطتها على المناطق التي تسيطر عليها
القوى اللبنانية غير الشرعية وبتأمين انسحاب القوات السورية والفلسطينية وانهاء

* مقال أعطي لاحدى الوكالات في ١٣ / ١ / ١٩٨٣ ثم نشر بالانكليزية في مجلة مونداي مورننغ.

الاحتلال الاسرائيلي . ولا شك ان حاجتنا ستكون اقوى كثيراً ، وقوتنا التفاوضية في وجه الاسرائيلي ستكون أرجح كثيراً ، اذا لم يكن على عاتق الدولة همّ غير همّ الاحتلال الاسرائيلي واذا كان كل ما عده ، من ثم ، متفقاً اما على تجميله او على صيغة حسمه .

انقضى زمن القول بان لا خلاف بين اللبنانيين وان الصدام كله بين لبناني وغريب ، والا فكيف نفسّر القتال بين لبناني ولبناني في الجبل ، في عاليه كما في الشوف ، وفي طرابلس ، وكيف نفسّر زعم فريق لبناني انه انتصر على فريق لبناني آخر ، وكيف نفسّر قول احد اركان الجبهة اللبنانية (فؤاد افرام البستاني) انه لا يرى الحل الا في قيام دولة فدرالية « تتعايش فيها كانتونات عدة وشعوب لبنانية ذات اصول اتنية ودينية مختلفة » ، او دعوة ركن آخر من اركان الجبهة (ادوار حنين) الى « متابعة النضال من اجل ان يبقى وجه لبنان مسيحياً وحكمه ذا طابع مسيحي » . بالطبع هذا لا يعبر عن اجماع الرأي بين اللبنانيين وانما يكشف خلافاً بينهم لا محل له في الظرف الراهن .

علينا في هذا الظرف ، ونحن نواجه مصيرنا تحت وطأة الاحتلال الاسرائيلي ، ان نجمّد خلافاتنا الى ان يحين أوان مناقشتها في حرية ، بعيداً عن ضغط الاحتلال والسلاح ، وفي جو ديمقراطي بعيداً عن منزلقات القهر والسيطرة .

علينا ان نجمّد أي تفكير يتعلق بصورة لبنان المستقبل . لا داعي لاثارة أي موضوع من مواضيع الخلاف بين اللبنانيين اليوم ، مثل موضوع الفدرالية والكانتونات ، وأي اصرار على طرح مثل هذه المواضيع من شأنه ان يعزز حجة القائلين بأن هناك من يريد استغلال الاحتلال الاسرائيلي لفرض حلول لجوانب اساسية من مشكلة لبنان لا تعبر عن رأي لبناني ديمقراطي حرّ ، او حجة القائلين بوجود علاقة سببية بين احداث الجبل ، وربما غير الجبل ، وتنفيذ المشروع ، مشروع الكانتونات .

وعلينا ان نجمد حتى مشكلة المهجرين اذا كانت معالجتها ستبقى سيياً لمثل الكارثة التي يعيشها لبنان في الجبل او ذريعة لحشد القوى المتقاتلة فيه او مصدراً لاستشارة الحفاظ ونكأ الجروح في هذه المرحلة الدقيقة . وعلينا ان نجمد حتى التباين في وجهات النظر الذي يؤدي ، ويا للعجب ، الى تجدد المأساة في طرابلس بين الفينة والفينة .

اذا كنا عاجزين عن تجميد خلافاتنا الداخلية في مرحلة يكتب فيها مصيرنا لاجيال واجيال ، فكيف نكون شعباً يستحق الحياة ؟

والتنظيمات المسلحة غير الشرعية ، بما فيها القوات اللبنانية التي أضحت تشغل حيزاً خاصاً في مشكلة التسلح اللاشعري منذ الاجتياح الاسرائيلي والانتخابات الرئاسية ، وسائر التنظيمات المسلحة ، بما فيها تلك المتبقية في طرابلس ، كل هذه التنظيمات ما مبرر وجودها ؟ ما هي قضيتها ؟ في الواقع ان لا مبرر لوجود أي منها الا في وجود الاخرى . أما آن لكل هذه التنظيمات ان تتوارى ؟ أما آن للدولة ان تعمل على حلها جميعاً ؟ اما حان الوقت لكي تستعيد الدولة فعاليتها باستعادة سلطتها على المرافئ والجمارك ، وتستعيد هيتها بتنفيذ الخطة الامنية الموعودة في منطقة بيروت برمتها ولا يقتصر وجودها على شطر من العاصمة فقط هو الشطر الغربي .

اما الوجودان العسكريان السوري والفلسطيني فلا يجوز ان يظلا مادة للمفاوضة مع اسرائيل . ابشع ما يمكن ان يصيب وجه لبنان العربي التعاطي مع الوجودين العربيين على مستوى واحد مع الاحتلال الاسرائيلي وان يعالج موضوع الوجودين العربيين انطلاقاً من مطلب اسرائيلي . الطبيعي ان يحسم هذا الموضوع في اطار السيادة اللبنانية بروح من التعاون والتنسيق بين المسؤولين السوريين والقادة الفلسطينيين بمعزل عن واقع الاحتلال الاسرائيلي وعلى النحو الذي يؤمن ، في آن معاً ، حسن العلاقة بين شقيق وشقيق ، وقوة الموقع اللبناني في المفاوضات مع اسرائيل . وهذا الموقع لم يكن قوياً ، كما تنم صيغة جلول

الاعمال التي اتفق عليها .

فبعد ان كان لبنان يرفض البحث في تطبيع العلاقات مع اسرائيل اذا به يسلم ببحته وانما تحت عنوان آخر . ومن كان يظن ان التحفظ الذي ذيل به جلول الاعمال بالنسبة الى عدم الزامية المواضيع المدرجة فيه يشكل سبيلاً لتحاشي الخوض في موضوع التطبيع ، سيتخلى عن ظنه بمجرد تشكيل لجنة فرعية لبحث بند العلاقات المتبادلة ، وما ادرج تحته من مواضيع هي من صلب موضوع التطبيع ، كالاتصال وحركة التجارة والاشخاص والمواصلات . ولا نتصور ان مثل هذه اللجنة ستلتزم الا لتناقش التفاصيل التطبيقية لكل هذه الشؤون .

ان دلت هذه النتيجة على شيء فانما تدل على ان الاستقواء بالحضور الاميركي في دور الشريك في المفاوضات ليس كافياً ، حتى لا نقول ليس مأمون النتائج ، وان لا غنى بالتالي عن قوة ذاتية لا تتأني الا من وحلة الموقف الداخلي وصلابته ومن مؤازرة عربية عملية فاعلة وحاسمة ، وخصوصاً ممن تتذرع اسرائيل بوجودهم داخل لبنان في تصعيد مطالبها ، أي السوريين والفلسطينيين .

ولا بد من كلمة في هذه المناسبة حول الدور الاميركي في المفاوضات . انني أقول مع من يقول ان المراهنة على اميركا في هذه المرحلة طبيعية ومشروعة ومبررة ، وذلك باعتبار ان اميركا هي القوة الوحيدة التي تستطيع ان تؤثر على اسرائيل لو شاءت ، وقد اضطلعت بدور مباشر في ادارة الوضع اللبناني منذ نشوب الحرب الاسرائيلية على لبنان صيف ١٩٨٢ ، وتولى هذا الدور فيليب حبيب مقياً في لبنان ردحاً من الزمن إبان احلك الايام التي مرت على لبنان ، ومنتقلاً بين عواصم المنطقة بلحناً عن مخرج للالزمة . يضاف الى ذلك ان بديلاً عن الدور الاميركي لم يظهر للعيان . ولكنني مع التسليم بحتمية المراهنة على اميركا في هذه المرحلة فأنني اقول بالتحسب لاحتمال الخذلان من اميركا ايأ يكن تقديرنا لهذا الاحتمال . يخطيء من يسقط من حسابه أي احتمال لفشل اميركا في التصدي لاسرائيل ، اما لانحسار في ارادتها او لعدم قدرتها على مصادمة اسرائيل . ثم لا ننسى ان اميركا انهزمت في

فيتنام وخذلت حليفها شاه ايران في يوم من الايام .

اما حقنا على اميركا فيجب ان لا ينطلق من منطلق الضعيف المستجدي ، وذلك لاكثر من اعتبار : اولا لان قوة اسرائيل مستمدة من اميركا وما تقلمه لها ، وبالتالي فان اميركا مسؤولة عما حصل للبنان على يد اسرائيل . ثانيا لان اميركا اوضحت متورطة في الوضع اللبناني حتى الاذنين ولا قبل لها بالتالي بأن ينتهي دورها الى غير نتيجة ، فذلك يهدد دورها في الشرق الاوسط في الصميم . ثالثا ، لان أي تأخير في تحقيق تقدم محسوس في لبنان سيتيح للاتحاد السوفياتي العودة الى الشرق الاوسط بعد ان تلاشى دوره بسبب الحرب في لبنان ، واميركا بلا ريب حريصة على ان لا يحدث ذلك . لكل هذه الاعتبارات يجب ان يشعر لبنان بالقوة في مطالبته اميركا بلعب دور الشريك الفاعل ، لا بل المتعاطف ، في المفاوضات التي يجريها مع اسرائيل .

موجز القول : اذا كانت التجربة دلت على ان المراهنة على الدور الاميركي في مواجهة اسرائيل غير كافية او غير مضمونة ، ولو انها محتومة ومشروعة ، فان ما جرى حتى اليوم يعزز المطالبة بتقوية المركز التفاوضي اللبناني عن طريق تعطيل كل العوامل التي تثقل على الموقف اللبناني وتوهنه ، وبخاصة تجسيد الخلافات السياسية الداخلية وحل الميليشيات وسائر التنظيمات المسلحة واخراج موضوع الوجود العسكري السوري والفلسطيني من حومة المفاوضات مع اسرائيل بالتفاهم على حل مناسب يخدم المصلحة الوطنية والقومية .

ان الاحاح على سرعة التعاطي مع كل هذه المواضيع لا يعني انها مقدمة على الاحتلال الاسرائيلي . بالعكس . فان تقديمنا خطر الاحتلال الاسرائيلي هو الذي يميل ازاحة كل العراقيل من طريق التصدي له ، خصوصا تلك التي يعود امر معالجتها لنا . ولا نخدع انفسنا بالقول ان اولوية خطر الاحتلال لا تسمح بالانشغال بأي شأن آخر . فنحن منشغلون على أي حال بشؤون أخرى ما دام الوضع في الجبل مشتتاً والوضع في طرابلس مهدداً وما دامت القوى اللبنانية

المسلّحة غير الشرعية تواصل ممارساتها الشاذة والمسيئة لمسيرة الشرعية . ثم اننا
نتوقع محادثات شاقة وطويلة جداً مع اسرائيل .